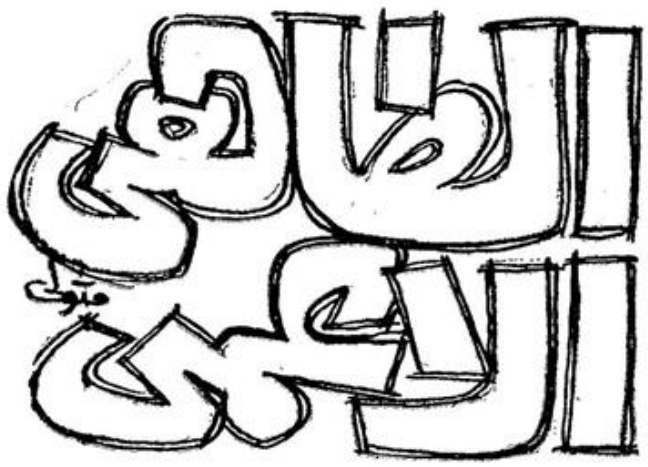

هذه القصة من الأدب السوفييتى الحديث ، كاتبها مازال حيا يرزق، وقد ولد كونستانتين بوستفسكى من أسرة متوسطة وبدأ كتابة القصة بعد الثورة وسجل فى قصصه الحياة والمواقف الانسانية التى تلقاها الطبقات المختلفة ٠

وهو مازال يعيش ويكتب حتى الآن ، لكنه يرفض الحياة فى موسكو ، ويفضل العيش فى القرى والضواحى خارج موسكو حيث يمكنه ان يرى خضرة الشجر وبياض الثلوج والطبيعة فى جميع صورها التى يعشقها عشقا لامزيد عليه ٠

ولذلك يلاحظ دائما فى قصصه تسجيله لجمال الطبيعة فى صورها المختلفة ٠

قصة : كونستانتين بوستفسكى

ترجمة : عبله فتحى

فى مساء أحد أيام شتاء عام ١٧٨٦ ، فى ضواحى فيينا ، وفى منزل صغير من الخشب ، كان يرقد رجل عجور يحتضر ٠

ومنذ أعوام قليلة ، كان هذا العجوز يعمل طاهيا عند أحد كبار الأغنياء الى أن فقد عينيه فى حادث انفجار موقد كان يعد عليه الطعام ، فاعتزل

العمل وعاش مع ابنته الوحيدة ماريا فى هذا المنزل الصغير ٠

وكانت الغرفة التى يرقد فيها المحتضر يبدو الفقر فيها بوضوح ، فالسرير قديم والمائدة متهالكة ، ومظهر الثراء الوحيد كان يبدو فى بيانو قديم متهالك يقف فى ركن من الغرفة ٠

ورفع العجوز رأسه وتمتم : اذهبى يا ابنتى الى الطريق واسألى أول شخص يقابلك ان يأتى لاعترف بين يديه ، فمنزلنا منعزل ، وغير متيسر الآن احضار قسى ، ولم يعد أمامى وقت كبير لكى أعيش ٠ وارتجفت يدا الفتاة وهى تعقد شالا كبيرا حول رأسها وتسرع الى الطريق ، وكانت الضاحية

ساكنة سكونا تاما ولا أثر للحياة فيها ، ثم بدا لعينيها شبح غير واضح لانسان واسرعت «ماريا» اليه وقبضت على ذراعه وهى ترتجف ٠

ماذا هناك ؟ سألهـا الغريب ـ وفى صوت يرتعش ابلغته ماريا برغبة ابيها ٠

وقال الغريب : حسنا ولو انى لست قسا لكن هذا لا يبـــدو هاما الآن ، هيا بنا ٠

وصحبته «ماريا» الى المنزل ، وهناك خلع الغريب معطفه بسرعة وجلس بجوار المحتضر وقال فى صوت هادىء :

ـ والآن ، قد لا يكون لى الحـــق فى سماع اعترافاتك فذلك الحق لم يمنحه لى الله ولـكنى استمد هذا الحق الآن من فنى ، فالفن كالدين يتســاوى معه فى القداسة ٠

والآن ، ماذا تريد ان تقول ؟

همس العجوز فى صعوبة : **انه ذنب كبير يؤرقنى ،** فقد اشتغلت طوال حياتى قبل أن أفقد عينى ، وكنت رجلا شريفا ولم أفعل أبدا شيئا ولكن عندما مرضت زوجتى « مارتا » ولم يكن عنـدى مال لشراء الدواء لها ، لم أتردد ، وأخذت صحنا ذهبيا صغيرا من ممتلكات السيد الذى كنت فى خدمته ، ولكن ٠٠ آه ٠٠ ليتنى علمت ان الذهب لن ينقذ مارتاى العزيزة من الموت اذن

ـ واقسم ـ لما كانت امتدت اليه يدى ٠

ورفع المحتضر يده كما لو انه يردد قسما ٠

ـ وسأله الغريب وهل عوقب خادم آخر غيرك بسبب السرقة ٠

ـ كلا ٠

ـ اذن ٠

ولمعت عينـا الغريب بوهج مفـاجىء وهو ينحنى فوق المحتضر ٠

ـ فانت لست آثما ، ليس أمام الله ولا أمام الناس ، فقد فعلت ما فعلت من أجل حبك لزوجتك وهذا يكفى عند الله والناس ، لأن يكون عملك غير سىء ٠

وبدا المحتضر عنـدما سمع هـذه الكلمات كما لو كان يريد البكاء وسأل الغريب :

والآن ، هل لك أمنية أخيره تريد ان تحققها ؟ فقال العجوز وهو يتململ فى رقدته : آه ٠٠ انهـا رغبة أخيره حمقاء حتى اننى لأخجل من ذكرها ، ولـكن ٠٠ آه ٠٠ كم أود لو اننى رأيت «مارتا» زوجتى الحبيبة بجديلة شـعرها الطويل كما كانت فى شبابها ٠٠٠ كم أود لو اننى رأيت الشمس وهى تضىء الحديقة القديمة حيث طالما جلسنا معا عنـدما كانت تزهر فى الربيع ٠٠ آه اننى أرجو عفوك يا سيدى فانى أعلم كم هى رغبة حمقاء !

وقال الغريب وهو يترك فراش المريض وينهض متجهـا الى البيـانو القـديم المتهالك ٠

حسنا قالها مرة أخرى وهو يمر بيده على أصابع البيانو وقد بدت فى وجهه بشاشة عجيبة ٠

وملأت أصوات البيانو الحجرة لأول مرة منذ عدة أعوام ، وبدا كما لو ان الثلج بدأ يتساقط مع أول نغمة ٠

وصاح المحتضر وهو يجلس فى فراشه انى أرى ٠٠ نعم ، انى أرى الآن «مارتاى» كما قابلتها أول مرة ، كان ذلك فى الشتاء ، وكانت السماء غائمة كما لو كانت لوحا من الزجاج الأزرق القاتم ، وجاءت « مارتا » تحمل لى جره مملوءة باللبن وكانت تبتسم ، آه ، كانت تبتسم كما أراها الآن ٠

واستمر الغريب يعزف وخفت صوت المحتضر ٠٠ وها هوذا المساء ، كم كان قاتما ، وعميقا فى هذا المنزل الخشبى الصغير الذى عشنا فيه معا عندما جاء الربيع ، وأزهرت حوله الزهور التى غرستها « مارتا » وكانت كلها بيضاء ، انى أرى كل ذلك الآن نعم ، انى أرى كل شىء بوضوح ٠

وأدار العجوز الأعمى رأسه وصاح فى ابنته ٠ افتحى النافذة يا ماريا ، افتحيها لكى أرى زهور «مارتا» البيضاء ٠

وفتحت « ماريا » النافذة ولم يكن فى الحديقة زهور ، ولم يكن فيها شىء على الاطلاق ، وانما هى موسيقى الفنان هى التى منحت المحتضر كل تلك السعادة فى لحظاته الأخيره ٠

وقال العجوز : **والآن يا سيدى ، لا أريد أن أموت قبل ان اعرف اسمك ، اعرف اسم الرجل الذى جعلنى أرى « مارتاى » الحبيبة بجديلتها الطويلة كما كانت فى شبابها ٠**

وكف الغريب عن العزف ونهض واقفا ، قال : **اسمى موتسارت** ٠

وركعت « ماريا » على ركبتها أمام الموسيقار الخالد ، واحنت رأسها فى خشوع ٠٠

وكانت خيوط الشمس الغاربة تتسلل خلال النافذة المفتوحة وعلى ضوئها الخافت تبدو الحديقة المهجورة وقد تراكمت فيها الثلوج ٠

وعندما رفعت « ماريا » رأسها كان المحتضر قد مات ٠